

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسائل الإعلام المسموعة والمرئية

والتنمية اللغوية

بين يدي الدراسة :

إنّ حالنا مع اللغة العربية ينبغي أن يكون كحال الجندي المرابط على الثغور، فهو مطالب بأن يظل أصبغه على الزناد، متوقفاً عدوه في كل لحظة، ومن أيّ اتجاه، لا يمل من تكرار تمرينه اليومي، ولا يضيق بتعليمات قائده، وربما يظل حاله هكذا حتى تنتهي حياته العسكرية.

فعلينا كذلك أن نظل نقرع الجرس، وننبه بالأخطار التي تواجه لغتنا، وتتقصدها، وبخاصة في زمن العولمة وهجمته الشرسة.

فلا يعني تناول باحث ما لهم من هموم العربية أن نكفّ عن الخوض فيه مثني وثلاث ورباع.. لا بد من أن تظل عيوننا يقظة، وعقولنا في حالة تنبه دائم؛ لأن اللغة تعني "أن نكون أو لا نكون"، لذا، فهي حرية بجهود أبنائها ومحبيها، وإخلاصهم، وتقانيهم، وتضحياتهم، ونحن نذكر ما قدمه أسلافنا دفاعاً عن لغتنا حين خرجت العربية مع جيوش الفتح الإسلامي، وبدأت تحدياتها الحقيقية في مواجهة لغات حية لأمم ذات حضارات متفوقة. وعلينا أن نتخذ من صنيعهم نموذجاً يحتذى في التضحية والبذل.

فلو نظرنا إلى قضايا العربية في العصر الحديث، لوجدنا العديد من الدراسات في كل قضية، ولوجدنا العديد من المؤتمرات والندوات للنظر في القضية الواحدة. وهذا شيء صحي، وواجب قومي، ففي موضوع اللغة العربية ووسائل الإعلام عقد العديد من المنتقيات المتخصصة، كان أولها في ليبيا عام ١٩٧٢م، ثم في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٩٨م، ثم في جامعة البترا في الأردن عام ٢٠٠٠م، تلا ذلك مجمع اللغة العربية في القاهرة عام ٢٠٠١م، ثم كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ٢٠٠٢م، وفي العام ذاته عقد المجلس الأعلى

للغة العربية بالجزائر مؤتمره الأول حول دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية وترقيتها، وربما كانت هناك ملتقيات أخرى لم تصل إليها أيدينا.

وهذا شيء يثلج الصدر ولاشك، ونأمل المزيد منه ليظل الأمل قائماً بأن العربية ستواجه تحديات العصر، وستجتازها، وهي أقوى، كما حدث لها بعد الفتح الإسلامي.

اللغة الأم :

تعد اللغة أهم ملمح من ملامح الهوية العربية، وأخطر مكون من مكوناتها، الذي يميزها عن سواها من الأمم، ويمثل المساس بها تشويهاً لتقافتها، وتحدياً لراهنها ومستقبلها.

واللغة الأم هي اللغة القومية، التي ينبغي أن تحرص عليها الأمة، وتعزز عليها بالنواجز، وهي بمثابة عرضها وشرفها. والشعوب الواعية الشريفة تكبر لغتها القومية^(١). وسميت اللغة الأم باللغة القومية؛ لأن بلاغة الفكر لا تستقيم إلا بها، وفصاحة اللسان لا تقوم إلا عليها. إذن علاقة الشعب بلغته القومية هي أكثر من شكل قاموسي^(٢). فهي البوتقة التي تصهر فيها عناصر الأمة، وهي وعاء حضارتها، والحاملة لمنجزها الثقافي، الذي يوحد أبناء الأمة، في وقت عجزت السياسة على امتداد العصر الحديث أن تحقق هذا الحلم العربي "الحفاظ على اللغة العربية حفاظاً على العرب، وعلى هويتهم وتراثهم من التوزع والتناثر والاندثار، والتفريط بها يعني التفريط بالإنسان العربي وهويته وتراثه، وضياع كل منهم"^(٣).

إن اللغة الأم هي أم اللغات التي يتكلمها الإنسان. كان فولتير يقول: من السهل أن يتحدث الإنسان عدة لغات. إنه عمل بضع سنين. أما إدراك صفاء اللغة الأم، والقبض على كنوزها المخبوءة، فهو عمل الحياة كلها.

ويرى د. السيد الشرقاوي أن اللغة الأم هي أساس نمو الملكة اللغوية واستقرارها عند الطفل العربي، مستمدة عناصرها من هذه الملكة^(٤). وجاء في المعجم الوسيط أن الملكة صفة راسخة في النفس، واستعداد عقلي لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة، ومن ذلك الملكة اللغوية، التي تعني المهارة^(٥)، والحذق في نطق اللغة العربية من جراء سماع أساليب النطق، وقد يكون ذلك من غير علم بقوانينها، لأنها شيء، وقوانينها شيء آخر. فالملكة غير صناعة العربية، وصناعة العربية (النحو)، إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. أمّا هي فتعني المقدرة على النطق الصحيح للغة سواء أعلم الناطق قوانين هذه اللغة أم لم يعلمها^(٦).

ويرى ابن خلدون أن حصول ملكة اللسان العربي إنما تتأتى بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى ترسّم في خيال السامع مع طرائقهم، وأساليبهم في التعبير، فينسخ على منوالها، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم، حتى حصلت الملكة المستقرة في التعبير عن حاجاته، وأغراضه وأفكاره ومشاعره على نحو كلامهم^(٨).

ويفهم من كلامه أن استحكام الملكة اللغوية للعربي يتم عن طريق تلقي اللغة بالسماع، بالإضافة إلى الحفظ، والممارسة للغة وفق ما يسمع أو يحفظ من كلام العرب. فهو يؤكد على الجوانب العملية التطبيقية، ويؤكد على الحسّ اللغوي، أو التمكن اللغوي التلقائي، لا على معرفة القواعد النظرية للغة.

التنمية اللغوية:

يقول الدكتور محمود حجازي بأن التنمية اللغوية هي "تغيّر تدريجي" نحو الأفضل ضمن عملية مجتمعية واعية، هادفة إلى الوصول إلى مستوى لغوي أفضل من آخر سابق عليه، كأن يكون المجتمع يتكلم بلغة عامة، فنحاول "تنمية" لغته باتجاه نطق اللغة العربية الفصيحة. في حين أن مفهوم (التغيّر) قد يكون من الفصيحة إلى اللهجات المحلية العامية، أو من الصواب إلى الخطأ، فمفهوم (التغيّر) لا يكون تنمية إلا إذا كان نحو الأفضل، والأرقى، والأكثر تقدماً وفائدة بالنسبة إلى الفرد، والأمة، والوطن^(٩).

إن، هناك فرق واضح بين مفهوم التنمية اللغوية، ومفهوم التغيّر اللغوي، فالتنمية اللغوية عملية منظمة مدروسة، تهدف إلى إحداث تغيّر إلى الأفضل، أما التغيّر اللغوي فلا يفترض أن يكون إيجابياً، فقد يكون سلبياً أيضاً.

وهذه الدراسة تسعى إلى رصد تلك العلاقة بين وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والتنمية اللغوية، وبمعنى أدق تسعى إلى الوقوف على إمكانيات هذه الوسائل العصرية في تنمية اللغة العربية على ألسنة أبنائها، على مستوى الألفاظ، والتراكيب، وسلامة النطق، وصحة الإعراب، على نحو علمي مدروس، يراعي المراحل العمرية المختلفة، بحيث تتراكم فيه الخبرة وتتواصل، ولا تكفي بتقديم نموذج اعتباطي ذرّاً للرماد في العيون، ويهدف إلى التغيير اللغوي إلى الأفضل، ويأخذ بألسنة أبناء العربية حتى يصل بهم إلى اللغة الإبداعية، أي إلى المستوى الأعلى في الأداء اللغوي. وهذا التركيز على دور وسائل الإعلام في التنمية اللغوية لا يعني اقتصار هذا الدور عليها فحسب، فهناك أدوار أخرى مهمة، مثل: البيت، والمدرسة، والمجتمع ... إلخ، ولكن هذه الوسائل الإعلامية العصرية تنهض بدور كبير

وخطير في لغتنا، وحياتنا الثقافية، وإذا ما أحسن استثمار هذه الوسائل، وتوظيفها بشكل واع، مدروس، وهادف، أمكن أن تحدث تغييراً إيجابياً في واقعنا اللغوي.

ويرى الدكتور محمد المختار أن بث وسائل الإعلام اللغة العربية الفصيحة البسيطة المفهومة الواضحة، التي تناسب العصر يعد تلقيناً، إذا استمع إليه الناس، استقر في أذهانهم على التكرار، ومع استمرار ذلك تنطبع تلك الأساليب الفصيحة المسموعة في ذاكرتهم، فيحصل لهم ما يسمى بالملكة، وتدفعهم هذه الملكة إلى محاكاته أثناء الحديث دون تكلف أو شعور، وينمو عندهم الحس اللغوي الطبيعي، في التعبير تلقائياً عن أحاسيسهم^(١٠).

ولا يعني ذلك أن نطلب من وسائل الإعلام أن تقدم دروساً ومحاضرات تتعلق بنحو اللغة وصرفها، وإنما نريد منها أن تقدم برامجها كلها بلغة عربية فصيحة، بسيطة، معاصرة خالية من الأخطاء، بعيدة عن العامية^(١١).

أهمية هذه الوسائل في حياتنا

لقد استفاض الحديث حول هذا الأمر، فهناك من تحدث عن دورها في التشكل المعرفي والثقافي للأمة، وهناك من تحدث عن دورها الاقتصادي والاجتماعي. وتتاول كثيرون دورها اللغوي سلباً وإيجاباً، وذهب بلبيل إلى أن الإعلام بعامة تعليم دائم لكل الأجيال، وأنه ثمرة للعلوم جميعها، لا الإنسانية والاجتماعية فحسب، بل التقنية والتجريبية، وهو محصلة لشعب المعرفة كلها^(١٢).

وقد أحدثت وسائل الإعلام بعامة شرخاً في حائط الفصل الدراسي، بعد أن احتلت مكان الوالدين والمدرسين في نقل العلم والمعرفة إلى الأفراد، فأصبح معظم التعليم يتم خارج الفصل الدراسي، وأصبحت الكمية الفائقة من المعلومات التي تنقلها الصحف والمجلات والأفلام والإذاعة والتلفزيون في أيامنا هذه، تفوق بكثير كمية المعلومات التي ينقلها مدرس الفصل، وهذا التحديّ حطم احتكار الكتاب كمساعد أساسي في العملية التعليمية^(١٣).

ولعل الدور اللغوي لوسائل الإعلام بعامة هو الجانب الأخطر في حياة أمتنا، ونخص بالذات دور وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، وتأتي أهميتها من كونها لا تخاطب شريحة دون غيرها، ولا فرداً دون سواه، فكما يسمعا الخاصة، يسمعا العامة.

وكلنا يعلم أن مصادر التنمية اللغوية متعددة، فهناك الأسرة، والمحيط الخاص، والمدرسة والمجتمع الكبير بكل قطاعاته وطوائفه، كما أن المادة المقروءة بمختلف

أشكالها تعد مصدراً مهماً في تنمية لغة الإنسان، هذا بالإضافة إلى وسائل الاتصال الحديثة، ووسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون وهذه المصادر -كما نلاحظ- ينضوي قسم منها تحت الاتصال الاجتماعي المباشر، وقسم آخر يأتي ضمن الاتصال الاجتماعي غير المباشر.

ويعيننا من هذه المصادر القسم الثاني منها، الذي يتم فيه اكتساب اللغة عن طريق الأجهزة "حيث يلتقي الإنسان عن طريقها بغيره، أو بفئة من أبناء قومه، ويسمع حوارهم، ويصغى لأحاديثهم أنى طلب أو رغب، فيلتقط ذهنه، وتختزن ذاكرته من تراكيبهم، وألفاظ لغتهم على قدر إصغائه إليهم، وبمقدار ما يمتلك من فطنة ونباهة ومقدرة على الربط والتمييز والحفظ، وعلى المحاكاة والتقليد، ثم على مقدار ما يتمتع به المتحدثون أنفسهم من فصاحة وطلاقة في التفكير والتعبير، وما لديهم من قدرة على التوصيل والتلقين.." (١٤).

فاللغة ظاهرة اجتماعية، وقدرة ذهنية "يكتسبها الإنسان على نحو مباشر من محيطه الذي يعيش فيه، ويختلط به، ويحتك معه ويتواصل، وبخاصة بعد أن شهد القرن الماضي، وتحديدًا العقود الأخيرة فيه ثورة هائلة في الاتصال، أصبح في مقدور الإنسان أن يتلقى لغته من مشاركيه على البعد، وبقدر ما شاء، وأنى شاء، وذلك بطريقة غير مباشرة.

ومن المسلم به أن لغة الإنسان تظل في حالة تنام وتطور، ما دام في حالة تواصل دائم مع محيطه. وهناك علاقة طردية مؤداها أن الإنسان كلما توثقت صلته بمجتمعه، وتعددت علاقاته به، نمت حصيلته اللغوية، وكلما نمت حصيلته اللغوية تأكد انتماؤه لمجموعته البشرية، وضمن مزيداً من الانخراط في محيطه، والوعي بدقائق حياته.

لقد غدا أثر هذه الأجهزة في اكتساب اللغة ومفرداتها وتراكيبها أمراً مفروغاً منه في زمن تنازلت فيه هذه الأجهزة عن أرسناتياتها، وغدت ذات طابع ديمقراطي شعبي، فلم تعد حكراً على القادرين والأغنياء، كما كان حالها في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، بل سرعان ما أصبحت في متناول الجميع، الأغنياء والفقراء، الكبار والصغار، أهل الحضر وأهل البادية. ولم تعد ترفاً يمكن الاستغناء عنه، ولا شراً تتوجس العائلات من وجوده بينها. فقد فرضت هذه الأجهزة نفسها بقوة، وصارت مطلباً إلزامياً لحياة الإنسان، ورفيقاً لصيقاً له حيثما أقام، أو ارتحل، في المنزل، والسيارة، والمكتب، والحقل، والمصنع ..، فَمَنْ ذا الذي يستطيع أن يعيش الحياة دون مذياع أو تلفاز أو حاسوب. مما جعل منها مصدراً مهماً من بين مصادر اكتساب اللغة.

لذا، منها يأتي الخير والخطر معاً، فإن أحسن استغلالها كانت سبيلاً لإغناء الإنسان بمفردات اللغة وصيغها وتراكيبها. وإن أسيء استغلالها أدت نتائج سلبية، وأسهمت في هدم ما تشيده مصادر البناء والتنمية اللغوية الأخرى.

الإذاعة المسموعة :

وقد كان المذيع أسبق من التلفاز ظهوراً واقتحاماً لحياتنا، ومع ذلك فعلاقة مجتمعنا به لا تزيد عن خمسين سنة إلا قليلاً، أصبح خلالها ذا أثر عظيم في اكتساب اللغة، وتنمية مفرداتها وتراكيبها وصيغها.

وعلى الرغم من ظهور وسائل الإعلام المسموعة والمرئية الأخرى، إلا أنّ المذيع ما زال ينهض بدور بارز في حياتنا، لسهولة حمله، ورخص ثمنه، وسعة انتشاره، أو على الأقل قبل أن يصبح التلفاز في متناول شريحة عريضة من أبناء المجتمع، وقبل أن يصبح حملته ونقله ميسوراً ممكناً.

ولا تُردُّ أهمية المذيع في اكتساب اللغة إلى مجرد السماع فحسب، بل من سماع شخصيات بعينها، شخصيات عامة، ومهمة ومعروفة، من سياسيين، أو أدباء، أو فنانين، أو مذيعين، ونحن نعلم أنّ اللغة محاكاة، والمحاكاة تأتي من الأدنى إلى الأعلى.

وفي عام ١٩٨٠م رأى الدكتور عبد العزيز شرف أنّ الإذاعة - وهي صحافة مسموعة- ستكون عظيمة الأثر في زيادة الثروة اللغوية بين عامة الشعب، وفي توحيد نطق المفردات، وفي التقريب بين اللهجات. وليس من المستبعد أن تنجح في إحلال الفصحى المبسطة محل العامية السائدة^(١٢). ولا سيما أنه لم يسبق من قبل أن استطاعت الكلمة المنطوقة أو المكتوبة في تاريخها الطويل أن تبلغ هذه الأعداد البشرية التي تقرأها أو تسمعها في وقت واحد، لقد بلغ التواصل بين الناس في زمن الوسائل الجماهيرية الحديثة أقصى مداه وأضخم أبعاده^(١٦).

فهو يرى أنّ الإذاعة - وليدة القرن العشرين - جعلت البيان باللسان يبعث الحضارة السمعية من جديد، حيث تعود الكلمات الإذاعية إلى أصلها كرموز صوتية تنتقل حول العالم^(١٧).

لذا، فهو يقول بأن على لغة الإذاعة، وهي اللغة المشتركة، أو اللغة العربية الفصيحة، بما تتسم به من سرعة، ومباشرة، وعادية، ودافعية، أن تعمل بالتدرّج على نحو هذا الفرق

القائم بين الفصحى واللهجات العامية. وليس من شك في أن السنة العامة ستقومها هذه الإذاعة؛ لأنهم سيعملون على محاكاتها في نطق الألفاظ^(١٨).

ورأى فاروق خورشيد عام ١٩٨١ أن إحساس الإذاعات العربية بالدور القومي الذي يجب أن تنهض به قد ازداد، وأنها تدرك أن دورها يتجاوز خطورتها كوسيلة ثقافية، وأن عليها أن تجسّر المسافة بين العامية واللغة المشتركة، لما يؤديه استعمال العاميات من هبوط في مستوى التلقي، وفي مستوى الأجيال، التي يفصلها استعمال الإذاعات للعاميات عن حسّها اللغوي، الذي يجب أن يُوصَل ويُنمّى^(١٩).

ولنا في الجزائر خير مثل على دور الإذاعة في نشر اللغة العربية، فقد لجأت إليها الجزائر قبل الثورة، وكانت الثورة التحريرية، تعتمد عليها في إسماع صوتها عبر صوت الجزائر. وكانت الإذاعة أفضل وسيلة في تعليم اللغة العربية وتعميمها على الرغم من ارتفاع نسبة الأمية، إلا أن الشعب كانت لديه قدرة استيعابية كبيرة للغة العربية الفصحى، وإن لم تكن لديه القدرة التعبيرية.

ولكن للأسف الشديد، فإن الجزائر - في فترة الانفتاح الإعلامي - لم تؤسس لإذاعات حرة، فعمدت إلى تدشين إذاعات جهوية ومحلية، والمشكلة في هذه الإذاعات أنها لجأت في أغلب برامجها إلى المخاطبة بالعامية، بحجة إيصال المعلومة لجميع فئات الشعب، مما أضر سلباً على تعميم اللغة العربية الفصحى^(٢٠).

لذا، تلام وسائل الإعلام في الجزائر، كما تلام في سائر الأقطار العربية لترخصها في استخدام العامية أو الهجينة من العامية والأجنبية؛ لأنها تمسّ الوحدة اللغوية بين الأقطار العربية، وتهبط بلغة الجمهور إلى حدود الإقليمية الضيقة، التي تضيق فهم المتلقي، وتقلّص معارفه، وتزيد الحواجز بينه وأبناء قومه من أصحاب اللهجات المحلية الأخرى^(٢١).

ويأتي هذا الترخّص ضيّقاً توقع الدكتور عبد العزيز شرف، وفاروق خورشيد وغيرهم من الدارسين الذين علقوا - منذ ثلاثين عاماً - آمالاً كبيرة على دور الإذاعة بخاصة في نشر اللغة المشتركة، وجسّر تلك الهوة بين العاميات والعربية المبسطة الفصيحة.

كما يأتي هذا التسامح ضدّ توجه الواقع اللغوي عند العرب، الذي يسير في اتجاه التخلي عن العناصر المغرقة في المحلية والجهوية، وإبراز المكونات المشتركة للغة.

التلفاز (الإذاعة المرئية):

وقد نافس التلفاز المذياع في دوره الخطير في تثقيف الناس وإمتاعهم، وفي نشر اللغة وتمييزها لدى المشاهدين والمتلقين بتزويدهم بحصيلة وافرة من مفردات اللغة، وصيغها، وتراكيبها. ومنذ أن اتسع انتشاره، وخرج من دائرته الارستقراطية، فصغر حجمه، وقل ثمنه، وسهل حمله، غدا أخطر من المذياع أثراً لاعتماده على حاستي السمع والبصر معاً، فلم يعد المرء سامعاً لما يقال، بل أصبح مشاهداً لمن يتحدث، وكيف يتحدث، وكيف ينطق، فغدت العملية أكثر تركيباً وتعقيداً، وأبعد أثراً في المتلقي، "إن الألفاظ وأساليب القول المختلفة تتردد وتتكرر خلال التلفاز مقترنة في الغالب بالصور الملونة، والمشاهد والحركات، أو الأصوات المسموعة، والطرق الأخرى الموحية المؤثرة، وبذلك تتجسد، وتبرز حية في إطار عملي فعلي جذاب، مما يجعلها تعلق في الذهن، وتثبت في الذاكرة، وترسخ مدلولاتها أو معانيها في تصور المشاهد والسامع والمنصت، ومما يزيد من أهمية هذا الجهاز وفاعلية دوره في تنمية المهارة اللغوية جنباً إلى جنب مع تنمية الحصيلة الثقافية، أنه مصدر متعة للكبار والصغار، يشد إليه الناس على مختلف طبقاتهم وأصنافهم وأعمارهم وأذواقهم ومستوياتهم العقلية والثقافية"^(٢٢).

وإذا كنا في هذه الدراسة - معنيين بالحديث عن دور هذه الوسيلة الإعلامية في نشر اللغة، وتمييزها لدى متلقيها، فهذا لا يعني أننا نتجاهل دور هذه الوسيلة الفعال في التثقيف والإمتاع، ونحن نعلم أن وسيلتها في ذلك هي اللغة، وهنا مكن الخير والخطر، ومن هنا يُؤتي الحذر.

فقد عدّ عيساوي عبد الرحمن التلفاز "معجزة العصر الحالي، إذ بواسطته يمكن نقل الصوت والصورة والحركة واللون إلى المشاهدين"^(٢٣).

ويمثل التلفاز في الجزائر بخاصة والوطن العربي بعامة الأداة الرئيسة لتعليم اللغة العربية، وبخاصة لأولئك الذين لا يحسنون القراءة والكتابة. وقد أدى انتشاره هناك إلى تناقص في استقطاب المستمعين، مما قلص من دور الإذاعة المسموعة في تعميم اللغة العربية^(٢٤).

ويرى بعض الباحثين أن لغة الإعلام العربي يمكن أن تكون أداة للإصلاح اللغوي، "ويمكن للإعلام العربي أن يقوم بدور (حصان طروادة) لتخليص العربية من ازدواجية الفصحى والعامية"^(٢٥).

أما الدكتور فؤاد زكريا، فقبل ذلك بكثير بشرّ بهذا الدور للإذاعة المرئية لإصلاح اللغة، وتوقع "أن تسهم بدور فعال في إعادة اللغة الفصحى إلى موقعها الرئيسي بين الجماهير العربية، وفي إزاحة اللهجات العامية، تمهيداً لمزيد من التوحيد الثقافي بين الأقطار العربية"^(٢٦). وقدم في البحث ذاته خطة موجزة لدور الإذاعة المرئية في إصلاح اللغة، يقوم على استخدامها في برامجها المختلفة لغة عامية ممزوجة بالفصحى مزجاً يزداد قوة بالتدرج، لتعود الجماهير العربية - دون نقلة مفاجئة - على أن تألف سماع الفصحى والتعبير من خلالها، وذلك بأن تضع خطة مدروسة للغة المستخدمة في برامجها، وذلك بأن تضع خطة مدروسة للغة المستخدمة في برامجها حتى الترفهية منها، تبدأ بلغة عامية تتضمن كثيراً من التعبيرات الفصيحة، يلي ذلك استخدام لغة متوسطة، لاهي بالعامية الخالصة، ولا هي بالفصحى الكاملة. ويرى أن هذه اللغة إذا استخدمت على نطاق واسع، وزاد نصيب الفصحى فيها بالتدرج، كانت كفيلة بأن تعيد إلى اللسان العربي وحدته دون عناء كبير.

ولكن للأسف الشديد لم تتحقق أحلام الدارسين، على النحو الذي ارتأوه، ولا أدري ما يقوله الآن الدكتور فؤاد زكريا بعد أربعة عقود من حديثه السابق، فهل حقاً نهضت الإذاعة المرئية بدورها المنوط بها في الإصلاح اللغوي، وفي إقصاء العاميات لصالح الفصيحة المشتركة، وفي توحيد اللسان العربي؟

فكما لا نملك أن ننكر دور الإذاعة المرئية في التنمية اللغوية لأفراد والمجتمع، فنحن لا نستطيع أن ننكر خطرها، وما تولد عنها من سلبيات تهدد سلامة لغتنا.

فمن المعلوم أن هذه الأجهزة تتوسل في خطابها لقاعدة عريضة من المتلقين بلغة تنحو إلى التبسيط، وتدنو من العامية، ولا تتورع من استخدامها، وفي ضوء ذلك تفقد اللغة قدرتها على أن تمدّ المتعلمين والمتقنين بحصيلة جديدة من المفردات والصيغ، والأساليب، التي يحتاجونها في عملية الإبداع والإنتاج.

ناهيك عن حرمان المتلقي للمادة اللغوية من ممارسة ما يتلقاه على نحو عملي، لأن العملية تتم من طرف واحد. وربما حالت هذه الأجهزة بين المتلقي ومحيطه اللغوي، لمداومته سماعها أو مشاهدتها لساعات طويلة، ومما يزيد الطين بلة، أن هذه الأجهزة تتيح للخطأ اللغوي فرصة التعميم على ملايين المتلقين في لحظة واحدة^(٢٧).

ولكن على الرغم من سلبيات الإذاعة المرئية على الناشئة، إلا أنها والمذياع معاً أكثر فاعلية في تنمية المهارات اللغوية لدى الأطفال، وبخاصة في المرحلة العمرية الأولى، إذا

كانت هناك خطة مدروسة لاستغلال هذين الجهازين في التنمية اللغوية لهذه الشريحة بخاصة،
ولسائر المتلقين بعامة، فليس العيب في التلفاز، بل العيب في استخدام هذه الوسيلة.

فيرى دي سوسير "أننا نتعلم اللغة الأم بإصغائنا للآخرين، إذ أنها لا ترتسم في دماغنا
إلا بعد تجارب عديدة، وفضلاً عن كل ذلك، فإن الكلام هو الذي يطور اللغة، والانطباعات
التي نستقبلها عبر سماعنا الآخرين هي التي تغير عاداتنا الألسينية"^(٢٨).

إذاً السبيل إلى تنمية لغة الطفل العربية هو بإحياء ظاهرة السماع، فإذا لقن الطالب في
مدرسته منذ سنين الأولى العربية الصحيحة، بواسطة السماع من معلم مؤهل قادر، فإن هذا
الطفل سرعان ما يؤدي اللغة نطقاً، وإدراكاً بشكل سليم، كما هو يفعل ذلك بنجاح إذ يسمع
مسلسل "الكرتون" باللغة الفصحى. وهذا السماع لا بد من أن يقترن بتدريب السليقة، وتنشيط
الطبع، ثم تربية النطق الصحيح، وتنمية التعبير السليم. ذلك هو المنهج البديل، الذي يرفض
الطريقة المتبعة في تعليم اللغة العربية في مدراسنا^(٢٩).

ومن شائع القول أنك إذا أردت أن تبني نهضة، فعليك أن تربّي جيلاً جديداً. وأقول :
إذا أردت أن تربّي جيلاً عربياً فعليك أن تعلمه لغته العربية الصحيحة.

وسؤالنا : ما الدور الذي يمكن أن تتهض به وسائل الإعلام المسموعة والمرئية في
التنمية اللغوية للأطفال؟ لقد عرضنا فيما سبق من هذه الدراسة دور هذه الوسائل في التغيير
اللغوي إيجاباً وسلباً. ولاحظنا أن الدارسين والمفكرين كانوا يعلقون آمالاً كباراً عليها في
إقصاء العاميات، ونشر اللغة الفصيحة المشتركة لدى المتلقين، وإثراء حصيلتهم اللغوية، على
مستوى المفردات، والتراكيب، والأساليب. ولكن - للأسف الشديد - النتائج كانت مخيبة
للآمال، وجاءت ضدّ التوقع. ففي زمن الفضاء المفتوح، أطلّت الجهويات، والفنويات،
والخنادق الضيقة بوجهها القبيح، وبدأ التنافس بينها في إقصاء اللغة الفصيحة، وإحلال
العاميات بدلاً منها. وبدأنا نسمع ونشاهد قنوات خاصة للشعر النبطي أو الشعر العامي، وأخذنا
نسمع نشرة الأخبار في بعض القنوات باللهجة المحكية.

ونحن لا ننكر وجود اللهجات بل وجودها أمر طبيعي لدى الشعوب المتحضرة، ولكن
شريطة ألا تحل محل اللغة الفصيحة؛ لأن اللهجة ليست لغة العلم والفلسفة والمصطلح والثقافة
والفن الرفيع. إن الذي يوحدها هو العربية الفصيحة، لا اللهجة، مهما كانت هذه اللهجة معروفة
ومنتشرة، كما هو الحال بالنسبة للهجة المصرية مثلاً، بفضل الدراما والسينما المصرية.

ونعود إلى دور هذه الوسائل الإعلامية المهمة في التنمية اللغوية للأطفال، لنسأل : هل هناك جهود جادة في هذا الصدد؟ هل هناك سياسة إعلامية عربية موحدة؟ هل هناك دراسات معمقة لهذا الموضوع؟.

للأسف الشديد هناك نوايا عربية طيبة، وهناك جهود غير منظمة في هذا الصدد، وهناك دراسات قليلة غير معمقة^(٣٠)، إذا كان طموحنا أن نصل بأطفالنا إلى إتقان لغتهم، وأن نتجاوز ذلك للوصول بهم إلى امتلاك اللغة الإبداعية، وهي أسى درجات الاستخدام اللغوي.

فنحن بحاجة إلى جهود مؤسسية مدروسة، تتآزر فيها جهود اللغويين والإعلاميين، فلا نكتفي ببعض المفردات والأساليب التي يكتسبها الطفل من خلال مشاهدته التلفاز أو سماعه للإذاعة.

فهناك برامج متلفزة موجهة للأطفال، تستخدم اللغة العربية الفصيحة، ولكننا لا نعرف لأي مرحلة عمرية موجهة، ولا نجد تراكمًا مدروسًا للخبرة اللغوية. مما يجعل هذه الجهود تذهب أدراج الرياح، وتظل دليلاً على حسن النوايا ليس إلا، ولا نعول عليها في اكتساب الطفل للغته الأم.

وما تقدمه أجهزة الإعلام العربية في هذا الباب هو تبسيط لدورها، فكما يقول اللغوي الفرنسي البارز مارسيل كوهين "بأن الأطفال يتمتعون بأفضل ظروف النمو واكتساب اللغة خاصة، عندما يتم رعايتهم بدأب وتفانٍ منقطع النظير، وبهدوء تام.."^(٣١).

نريد برامج متلفزة للأطفال تحدد المرحلة العمرية التي تتوجه إليها، كما هو الحال في ألعاب الأطفال التي تصلنا من الغرب والشرق، ومحدد عليها المرحلة العمرية التي تصلح لها. ونطالب بأن تنتمى الخبرة اللغوية فيها وتتراكم، حتى نصل إلى المرحلة العمرية المتقدمة.

فقد تابعت يوماً برنامجاً للأطفال على الفضائية المصرية الرسمية بعنوان "حواديت"، وقدم الحكاية فنان كبير، وهي حكاية أحداثها حول (صياد للدبية) في ألاسكا الغارقة في الثلج، وكان يخاطب طفلين لا يزيد عمرهما عن خمس سنوات.

والحكاية تقوم على المغامرة، وتتم أحداثها في بيئة ثلجية، لا علاقة لهذين الطفلين بها، وباسمها، وبحيوانها، وبطبيعتها، فلم يستطع أن يشد انتباه الطفلين مطلقاً، وقد قدمها باللهجة المصرية. وتلا ذلك حكايات أخرى مشابهة باللغة ذاتها.

والرأي أن هذه أعمال غير مدروسة، تعنى بالمتعة والترفيه، ولا تلتفت إلى اللغة وتميبتها، ولم تشغل نفسها بالمرحلة العمرية التي تخاطبها.

وحيثما آخر شاهدت حكاية (كارتون) للأطفال على قناة مواهب، تستخدم اللغة العربية الفصيحة، وهو عمل طيب ولا شك، لكن المشكلة أن الرموز المستخدمة وطبيعة الحكاية تناسب مرحلة عمرية بعينها، واللغة المستخدمة تصلح لمرحلة عمرية أخرى.

وشاهدت برامج أخرى في عدد من القنوات العربية الرسمية، ولاحظت أنها تقدم الحكايات للأطفال بلغة عربية فصيحة مبسطة. ونرى أنّ هذه البرامج ذات فائدة كبيرة في تنمية لغة الأطفال، بالإضافة إلى الترفيه والإمتاع، وجرعة المعرفة المقدمة أيضاً.

لكن هذه البرامج الجيدة بحاجة إلى تواصل، لتتنامي الخبرة اللغوية عند الأطفال المتلقين.

ومن البرامج المتلفزة الناجحة التي شاهدتها حلقة في قناة عربية - تسعى إلى تقديم كلمات متضادة، مثل : (سِرْ وقف) ودارت الحلقة حول إشارتي المرور الحمراء والخضراء، وسعت إلى ربط المفردة بالحركة واللون والصوت.

ومثل هذه البرامج ناجحة ومقدرة، شريطة أن تكون ضمن سلسلة جهود مدروسة، تعتمد التواصل والتنامي، لا الانقطاع ولا تكفي بمجرد تسجيل موقف، والإعلان عن وجود النوايا الحسنة.

وليس معنى هذا أنّ وسائل الإعلام هذه بمفردها كفيلة باكتساب الطفل للغته الأم، فهناك دور الأسرة، ودور المدرسة وغير ذلك. لكننا ندرك خطورة هذه الأجهزة في حياة أطفالنا، وكيف غدت صلتهم بها تصل حد الإدمان، فلم لا نستغل هذه العلاقة؟ فنقدم لهم على نحو مرحلي تدريجي قراءة بعض النصوص القرآنية، أو نصوص من الحديث النبوي الشريف (هذا للمسلمين)، وقراءة بعض النصوص الأدبية الجذابة المتميزة بموسيقى عباراتها، وجرس ألفاظها، وحكاية القصص القصيرة المشوقة المثيرة، وتقديم دروس منظمة ترتبط بصورة أو بأخرى بالمقررات الدراسية، وعرض مسلسلات كالقصص والمغامرات باللغة الفصحى المبسطة، أو كما يسمها البعض باللغة المخففة، أي اللغة التي تكون وسطاً بين العامية المهذبة والفصحى العالية، مع مراعاة إدخال المفردات اللغوية الجديدة فيها بشكل تدريجي ومستمر.. إنّ البرامج والمسلسلات التي تقدم للطفل باللغة الفصحى السليمة تجعل اللغة القومية محببة إلى

الطفل، قريبة منه، مألوفة مأنوسة لديه، سهلة المنال، يمكن إتقانها، وليس هناك ما يدعو إلى اللجوء إلى لغة عامية إقليمية تحدد الاكتساب اللغوي والفكري للطفل، وتضيق عليه آفاقه الثقافية، وتظهر له اللغة الأم، وكأنها لغات شتى متفرقة مختلفة يصعب التمكن منها^(٣٢).

وهذا ما قصدناه في بداية دراستنا عند الحديث عن الملكة اللغوية، التي تعني المهارة والحنق في نطق اللغة العربية من جراء سماع أساليب النطق، وأن ذلك يمكن أن يتم من غير علم بقوانينها. وهو ما يعرف بالحس اللغوي، أو التمكن اللغوي التلقائي دون معرفة القواعد النظرية للغة. وهذا هو مفهوم التنمية اللغوية كما حدده الدكتور محمود حجازي، فهو تغير تدريجي نحو الأفضل ضمن عملية مجتمعية واعية.

وهذا الطموح بحاجة إلى سياسة إعلامية عربية مشتركة، يتم التنسيق فيها بين المؤسسات الإعلامية ومجامع اللغة العربية، أي أن هذا عمل مؤسسي، يحتاج إلى تشريعات حكومية تدعمه.

هوامش الدراسة

- ١- انظر: د. أحمد الخطيب: اكتساب الطفل للغة الأم في زمن العولمة، من كتاب: اللغة العربية وتحديات العصر، منشورات جامعة البترا، عمان، ٢٠٠٥، ص ١٠١.
- ٢- انظر: السيد الشرفاوي: عربية الإعلام والتفاعل بين الفصحى واللهجة واللغة الأم، ص ٩٣، من كتاب: مؤتمر علم اللغة الأول ١٧-١٨/١٢/٢٠٠٢، جامعة القاهرة - كلية دار العلوم.
- ٣- د. سعد الكردي: الإعلام وتنمية الملكة اللغوية بين الواقع والطموح، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٤، يوليو ١٩٩٩، عدد خاص (اللغة العربية ووسائل الإعلام).
- ٤- في مفهوم اللغة الأم: راجع كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة: دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٨م، ص ١٢٢.
- ٥- السيد الشرفاوي: عربية الإعلام والتفاعل بين الفصحى واللهجة العامية، ص ٩٤.
- ٦- المعجم الوسيط، مادة (ملك) ص ٩٢١، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٣م.
- ٧- راجع: مقدمة ابن خلدون (المجلد الأول): ١٠٨١ ط ٢، مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦١م.
- ٨- المرجع نفسه: ص ١٠٨٤.
- ٩- د. محمود فهمي حجازي: اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين: ١-٢، بحث قدمه إلى ندوة اللغة العربية، التي أقامها مجمع اللغة العربية بدمشق ٢٦-٢٩/١٠/١٩٩٧م.
- ١٠- د. محمد المختار ولد أباه، ضعف الأداء اللغوي أسبابه وعلاجه: ص ٤، بحث مقدم إلى ندوة اللغة العربية التي أقامها المجمع اللغوي بدمشق ٢٦-٢٩/١٠/١٩٩٧م.
- ١١- انظر: د. سعد الكردي: الإعلام وتنمية الملكة اللغوية: ص ٦٣٩.

- ١٢- انظر: ذو الدين بليبل: الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام، ضمن سلسلة كتاب الأمة، قطر، ط١، ٢٠٠١، ص ٢٨-٣١.
- ١٣- راجع: محمود فاخوري: سلطان العربية في مضمار الإعلام، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٤، ج٣، ص ٦٥٨-٦٥٩.
- ١٤- انظر: د. أحمد محمد المعتوق: الحصيلة اللغوية: أهميتها - مصادرها - وسائل تنميتها، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢١٢، أغسطس ١٩٩٦م، ص ٨٧.
- ١٥- د. عبد العزيز شرف: المدخل إلى وسائل الإعلام، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، ط ١٩٨٠م، ص ٢٤٩.
- ١٦- المرجع نفسه: ص ٧١.
- ١٧- المرجع نفسه: ص ٢٢٥.
- ١٨- انظر المرجع نفسه: ص ٢٤٣، ص ٢٤٩.
- ١٩- راجع في لغة الإذاعة وطبيعتها: فاروق خورشيد، دار الشروق بالقاهرة ١٩٨١م، ص ١٤٠-١٤٤.
- ٢٠- انظر: قادري حسين: دور وسائل الإعلام في انتشار اللغة العربية في الجزائر، ص ٥٩ وما بعدها، ضمن أعمال مؤتمر المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، (دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية وترقيتها)، ٢٠٠٤م.
- ٢١- مرجع سابق: د. سعد الكردي: الإعلام وتنمية الملكة اللغوية ص ٦٤٨.
- ٢٢- مرجع سابق: أحمد المعتوق: الحصيلة اللغوية، ص ٩٢، ٩٣.
- ٢٣- عيساوي عبد الرحمن: الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١٧.
- ٢٤- راجع: مصدر سابق: قادري حسين، ص ٧٨، ٧٩.
- ٢٥- د. نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٧٦ الإصدار الثاني، الكويت ٢٠٠١، ص ٣٤٤. وانظر: د. تيسير أبو عرجة: قضايا

ودراسات إعلامية، دار جرير، عمان ٢٠٠٦، ص ١٣١، وما بعدها، وقد قدم الدكتور عبد العزيز شرف عام ١٩٨٠ رؤية إيجابية لدور وسائل الإعلام في الإصلاح اللغوي والتنمية اللغوية. (مرجع سابق: المدخل إلى وسائل الإعلام، ص ١١٩، ص ١٥٦).

٢٦- د. فؤاد زكريا: الإذاعة المرئية والثقافة العربية المعاصرة، بحث في (حلقة الإذاعة المرئية وآثارها الاجتماعية والثقافية في الوطن العربي، طرابلس - ليبيا، ٢٣ - ١٩٧٢/٩/٣٠).

٢٧- لمزيد من التفاصيل في الوقوف على سلبيات هذه الوسائل الإعلامية لغوياً، انظر: مرجع سابق: أحمد المعتوق: الحصيلة اللغوية، ص ٩٤ وما بعدها.

٢٨- انظر: دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي مجيد النصر، ط ١٩٨٤م، دار نعمان للثقافة، بيروت، ص ٣٢.

٢٩- رياض قاسم ٢٩: قومية الفصحى والمجتمع: تحديات الحاضر والمستقبل، مجلة المستقبل العربي، ص ١٧، ع ١٨٥، تموز ١٩٩٤م، بيروت، ص ٤١.

٣٠- انظر: مرجع سابق: أحمد المعتوق: الحصيلة اللغوية، ص ٩٣، فهو يقول بأن المكتبة العربية تفتقر إلى وجود إحصائية تبين نسبة المفردات اللغوية العربية الفصيحة، التي يكتسبها طفل ما قبل المدرسة، ثم طفل المدرسة من خلال مشاهدته لبرامج التلفاز، فإن من المؤكد أن التلفاز يشارك.

٣١- سيرجيو سبيني: التربية اللغوية للطفل، ترجمة: فوزي عيسى، وعبد الفتاح حسن، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠١، ص ٩١.

٣٢- انظر: مرجع سابق: أحمد المعتوق: الحصيلة اللغوية، ص ١٠١، ١٠٢، وراجع في ذلك:

- د. جميلة عمارة: الأبعاد اللسانية للعربية المكتوبة غير المشكولة، دار زهران، عمان، ٢٠٠٩م، ص ٩٣ موضوع دور وسائل الإعلام في نشر العربية المشكولة، فقد أشارت إلى العديد من الدراسات في هذه الصدد، غير ما ذكرناه، لكل من الدكتور نهاد الموسى، ومنصور فهمي، والدكتور رمضان عبد التواب.